12

دراسة أعلام متصوفات بغداد في القرن السابع الهجري

من خلال كتاب " صفة الصفوة " لابن الجوزي "

م.د. نورة إبراهيم توفيق

وزارة التربية– تربية نينوى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علينا بعلمه الواسع، وأحاط بنا بخلقه البديع ، وقدّر لنا تقديره العظيم ، وجلّ جلاله ، وعلا اسمه في السموات والأرضين. والصلاة والسلام على سيد البشر وأطهرهم ، وأسمى كائنات الأرض وأشرفهم، وأفضل المخلوقات في الأرض والسموات، سيدنا ، وحبيبنا ، وشفيعنا ، وقائدنا ، وإمامنا في الدينا والآخرة: نبينا الكريم ، ومولانا العظيم محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأبرار الأخيار ، وعلى أمته الكرام ، وعلينا ، وعلى عباد الله الصالحين أجمعين .

أما بعد:

فإن موضوع البحث الذي كُلفت بكتابتهِ هو: "دراسة أعلام متصوفات بغداد في القرن السابع الهجري من خلال كتاب " صفة الصفوة " لابن الجوزي ".

تم تقسيم البحث إلى عدة محاور:

فالمحور الأول هو : بلورة فكرة إحصاء أسماء النساء المتصوفات من أهل بغداد من خلال كتاب "صفة الصفوة" لابن الجوزي ، مع نبذة كافية من تراجمهم تاريخيا، استهلالا بولاداتهم، وانتهاءً بوفياتهم، ويتخلل ذلك أسلوب معيشتهم التي تندرج تحت طريقة حياتهم الاجتماعية والفكرية ، واتجاهاتهم الدينية ،مع الأخذ بنظر الاعتبار حالة أزواجهم الذين كانوا من كبار المتصوفة المعروفين ، حتى ذاع صيتهم في أنحاء المعمورة ، خلال القرون طويلة. أما المحور الثاني: فيتناول الأوضاع الفكرية في بغداد خلال القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، إن هذا القرن شهد أوضاعاً فكرية مضطربة، متشاحنة، تصارعت فيها الاتجاهات والتيارات الفكرية، وحاولت كل منها التوسع والامتداد على حساب الآخر، ومد نفوذها عند الخليفة العباسي أو عند الراي العام. فضلا عن ذلك فإن تلك المرحلة السياسية قد شهدت أقسى الغزوات الأجنبية، وهي غزوة المغول (656 هـ = 1258 م)، التي دمرت بغداد، فانهار الصرح العلمي. أما المحور الثالث ففي ترجمة أبي الفرج الجوزي ووصف كتابه " صفة الصفوة " وتخصيص لمحة ميسرة عن حياته، ومسيرته العلمية في دراسة تاريخية وهو في بغداد ، والذي كرّس حياته للتدريس والتأليف والتصنيف ، ولم يرحل إلى البلدان الأخرى طلبا للعلم ، كما قدم تعليلا معقولا لتأليفه كتاب " صفة الصفوة " تصحيحاً منه في توضيح النهج الصوفي لكتاب " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" للحافظ أبي نعيم الأصبهاني . كما شمل المحور موقفه من التصوف ورجالاته، وعلاقته بهم، واسباب معارضته لهم .

ملخص البحث باللغة العربية

عني هذا البحث التاريخي بدارسة علم من العلوم الشرعية وهو ((التصوف في كتاب صفة الصفوة)) للفقيه والواعظ العراقي ((لأبي الفرج الجوزي)) خلال الفترة الزمنية السياسية الحرجة والمضطربة

تزامنت فيها الحياة من مختلف النواحي وتصارعت التيارات الفكرية والاتجاهات الداخلية مع بعضا البعض فكانت أشد حرباً وعصفاً على الفقهاء ورجال الفكر ، أما سيوف الاعداء ولهيب الحاقدين في الخارج فكانت تهاجم الاسلام من الشرق والغرب لقضاء على وهج الحضارة العلمية في بغداد مدينة السلام ، ارض العلوم والمعارف وكان الجهد مبذولاً في تقديم دراسة إحصائية لكوكبة نسوية صوفية طيبة من أهل بغداد والمعروفات بالزهد والصلاح والذي ذكرهم "أبو الفرج الجوزي " في كتاب " صفة الصفوة " وأفرز البحث سلسلة من المعطيات التصحيحية والتوضيحية لمنهج التصوف عند أبن الجوزي من خلال هذا الكتاب ....

الكلمات المفتاحية : متصوفات بغداد، صفة الصفوة – ابو الفرج الجوزي.

ملخص البحث باللغة الإنكليزية: –

ABSTRACT

This historical research concerned with the study of a science of Sharia science, which is ((Sufism in the book Sifat Al-Safwa)) by the Iraqi jurist and preacher ((Abu Faraj al-Jawzi)) during the critical and turbulent political period in which life coincided in various respects and intellectual currents and internal trends wrestled with each other, it was the most severe war and storm of the external war on jurists and men of thought, while the Swords of enemies and the flames of haters abroad were attacking Islam from the East and west to eliminate the glow of scientific civilization in Baghdad, the city of peace, and science the effort was made to provide a statistical study of a good Sufi feminist constellation from the people of Baghdad, known for asceticism The research produced a series of corrective and explanatory data for ibn al-Jawai's approach to Sufism through this book.

Key Words- Sufis of Baghdad -"Sifat al-Safwa" by Ibn al-Jawzi

المحور الأول: أسماء أعلام المصطفيات العابدات بغداديات

أولاً: جوهرة العابدة البراثية (ت 170هـ / 786م) (1):

وهي زوجة أبي عبد الله بن أبي جعفر بن شعيب البراثي الزاهد (ت 187هـ / 803م) ، وهو من كبار شيوخ التصوف في بغداد خلال العصر العباسي الأول ، اتسمت بالورع والصلاح والنسك والعبادة له عدة مؤلفات في الزهد ومنها كتاب النكت المرضية والاحوال الزكية [2] وقد سكن محلة براثا [3]. وكانت جوهرة جارية عند رجل غني من أغنياء بغداد، فأعتقها ، ثم تعرفت إلى أبي عبد

الله، فتزوجت منه ، وقضيا حياتهما في العبادة والزهد والتصوف ، وعاشا معاً في بيت متواضع، إلى أن توفيا [4].

ثانياً: اخوات بشرُ الحافي (5): وهمن كل من:

أ. **مضغة بنت الحارث** (ت225هـ / 839 م): وهي أكبر بنات الحارث ، وأكبر من بشر أيضاً [6] ، كانت كثيرة العبادة: كصلاة الليل والصوم والورع والزهد [7]، ويصف بشر علاقته بها ، فيقول: ((تعلمت الزهد من أختي ، فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صنع)) [8].

وهذا يدل على أن علاقتهما كانت وطيدة ومتينة، وعندما ماتت حزن أخوها بشر عليها حزناً شديدا، وأصابه الألم، بل المرض مع شدة البكاء على فراقها، واستمر لمدة زمنية ليست قصيرة، والدليل على ذلك قول ابن الجوزي: ((لما ماتت مضغة، توجع عليها بشر توجعا شديدا، وبكى كثيرا)) [9].

وعندما سألوا بشرا عن هذا الجفاء والحزن الذي أصابهُ، أجاب جوابا فيه حكمة حيث أرجعه إلى تقصيره في العبادة، وخدمة ربه، فكان جزاءهُ أن سلبه أله أقرب أنيس له وودود، وهي وفاة أخته مضغة، وأما جوابه فقال فيه: ((إن العبد إذا قصر في خدمة ربه سلبه انيسه، وهذه كانت أنيستي من الدنيا)) [10]

ب. **زبدة بنت الحارث** أخت بشر، كانت تكُنى بـ (أم علي) ، ولكن تقل الروايات حول ترتيبها في الأسرة، وفي مولدها وفي وفاتها، فهناك مصادر تذكر بأنها كانت من أروع العابدات والزاهدات في بغداد في إقامة الصلاة والصوم وأداء العبادات الأخرى [11]. وقد تميزت زبُدة وأختها مضغة بالورع والتصوف فضلا عن علمهما وفقههما ومعرفتهما بمسائل الشرع، والأحاديث الشريفة، يقول الامام أحمد ابن حنبل في حقهما [12]: (من أحب أن يعرف بعده عن سبل الورعين فليدخل على أُخْتَيْ بشر الحافي، ويسمع بمسائلهما، ويبصر طريقتهما) [13]. ومن اشهر أقوالها: (أثقل شَيْء على العَبْد الذُّنُوب، وأخفه عَلَيْهِ التربة، فَمَا لَهُ لَا يدْفع أثقل شَيْء بأخف شَيْء) [14].

ج- **مخة بنت الحارث** أخت بشر الحافي: وهي الأخت الثالثة له، التي عرفت بـ (الصوّامة القوّامة)، وهن كن مذكورات بالعبادة والورع والعمل الصالح [15].

ومن خلال ما تقدم من سيرة أخوات بشر الحافي تبين أن هذه الأسرة كانت على قدر كبير من الزهد والعبادة، وهن من المتصوفة والصالحين، كما تميزت بالعقل الراجح، واستقامة المذهب، وابتعاد النفس عن اللذات والشهوات [16].

وإلى جانب ذلك تبين للباحثة أن أخوات بشر الحافي كن في مقدمة النساء العابدات الزاهدات الورعات في بغداد، حيث كان التصوف هو المنهج الصحيح لمسلك من العلماء والفقهاء، حفاظا على أرواحهم، وأمناً من التهديدات والأخطار التي كانت تواجههم.

كما لا ننسى أن المبدأ الذي قامت عليه الخلافة العباسية هو العمل بالكتاب والسنة، فجعلها الطريق التي تسلكه الدولة العربية الاسلامية [17] .

ثالثاً: زوجة عبد الله بن الفرج، أبو مُحَمَّد القنطري (العابد) [18].

وهو أحد أهالي بغداد، والذي يُعد من أكابر الزهاد والعباد (221– 230) هـ، وله مواقف، وكلام نافع ، وكان لبشُر الحافي علاقة حميمة به، فكان يزوره في بيته [19].

أما زوجته التي نحن هنا بصدد الحديث عنها والتعريف بها، فلم تذكر الروايات اسمها، ولا مولدها، ولا وفاتها، لكنها تؤكد جميعا على أنها كانت امرأة صالحة، وزوجة عابدة، زاهدة في حياتها، كاتمة أسرار زوجها، الذي مرض، ثم توفي على أثر مرضه، فغسلته بنفسها وكفنته، دون أت تخبر أهل زوجها وإخوانه، وكانوا ينتظرونه خارج البيت، وعندما انتهت من عملها أخبرتهم، فحملوا جنازته إلى القبر. ثم غلقت باب البيت من خلفهم بعدما حملوه. (لم تعلّم زوجته إخوانه بموته – وهم جلوس بالباب ينتظرون الدخول عليه في علته، فغسلته وكفنته في كساء كان له، وأخذت فردَ بابٍ من أبواب بيته ، وجعلته فوقه ، وشدته بشريط، ثم قالت لإخوانه: قد مات، وقد فرغت من جهازه، فدخلوا فاحتملوه إلى قبره، وغلقت الباب خلفهم) [20].

يستدل مما تقدم أن امرأة عبد الله كانت صابرة محتسبة متوكلة على الله في أمر وفاة زوجها، وقد يحتمل في قيامها بهذا العمل عدة أوجه منها: مبالغة بعض الروايات والمصادر في ذكر أخبار الزاهدين والمتصوفة، اذ ليس من واجب الزوجة غسل وتكفين زوجها، وعدم إخبار أهل زوجها بوفاته، وهم جالسون أمام البيت، وهناك احتمال ثان ينطوي على أن الرواية صحيحة صادقة، إذ كانت فعلاً أمرأه صالحة، زاهدة، وعابدة، مؤمنة، موقنة، صابرة، راضية بقضاء الله.

رابعاً: ميمونة ابراهيم بن احمد بن اسماعيل أبو إسحاق (ت؟ / م؟): 5

وهي أخت إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل: أبي إسحاق (ت 291هـ/ 904م)، فهما من أم واحدة [21]. وكانت امرأة صالحة، عابدة، زاهدة، وكانت على طريق الورع والتوكل، وعلى نهج أخيها إبراهيم الزاهد. قرأت القرآن الكريم على يد الشيوخ، وسمعت الحديث الشريف، وهي من الصوفيات والعارفات في بغداد، تزوجها حامد الأسود. وقد عدها البعض من رواة الحديث [22].

ويذكر في إحدى الأيام انه دخل عليها أخوها إبراهيم وهو متضايق، سيء المزاج، فرأته بهذه الحالة، فقالت له كلاما فيه حكمة: ((من ضَاقَ قلبه ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، أَلا ترى أَن الله تَعَالَى يَقُول: [23] ثم تلت الآية القرآنية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ

أَنفُسُهُمْ [24]، ثم اختتمت، وانتهت من تلاوتها أو قراءتها، ثم قالت: ((لقد كَانَ لَهُم فِي الأَرْض متسع، وَلَكِن لما ضَاقَتْ عَلَيْهِم أنفسهم ضَاقَتْ عَلَيْهِم الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا)) [25].

ولها أقوال وعبارات مشهورة تحث أخاها على التوكل بالله، والصبر، والامتثال للأمر، أي أمر الله سبحانه وتعالى [26].

خامساً: مؤمنة بنت بهلول

وهي من النساء العابدات الصالحات في دمشق، عاشت في القرن الثالث الهجري، ودرست العلوم الشرعية على يد كبار العلماء، وسمعت الحديث النبوي في بغداد ودمشق. ولقد كانت متصوفة صالحة، سئلت ذات يوم عن علمها ومعرفتها: ((من أين استفدت هذه الأحوال؟ قالت: من اتباع أمر الله [تبارك وتعالى] على سنة رسول الله γ، وتعظيم حقوق المسلمين، والقيام بخدمة الأبرار الصالحين)) [27].

وهي أخت حولا بنت بهلول، كانت كأختها من العابدات، القانتات، من متصوفات دمشق، وقد امتحنت في محنة خلق القرآن، أيام القاضي أبي بكر السجستاني (230 هـ – 316 م) [28].

سادساً: أم عيسى بنت إبراهيم أسحاق الحربي

وهي عالمة، فاضلة في الفقه والحديث، توفيت سنة (328هـ– 939م)، ودفنت في بغداد إلى جوار أبيها [29].

سابعاً: أمة الواحد بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي

واسهما سُتَيْتَة بنت الحسين بن إسماعيل بن محمد بن سعيد بن أبان المحاملي الضبي (377 هـ –987م) وهي ابنة القاضي الحسين بن إسماعيل المحاملي، ووالدة القاضي مُحَمَّد بن أَحْمَدَ بنِ القَاسِمِ المَحَامِلِيّ [30] ، وهي عالمة فقيهة، ومفتية، حفظت القرآن الكريم، وأتقنت الفقه الشافعي، والفرائض، والنحو، والرياضيات... وغير ذلك من العلوم الإسلامية الأخرى... حيث تفقهت على يد أبيها القاضي، وروت عنه الحديث النبوي، وكانت صالحة فاضلة، كثيرة الصدقة، مسارعة في الخيرات [31]، تنتمي إلى أسرة المحاملي المعروفة والمشهورة بالعلم والدين. فمعظم أفراد أسرتها من المحدثين والرواة والقضاة؛ لذلك نشأت، وترعرعت على العلم والدين ، وتزوجت من ابن عمها أحمد بن القاسم بن إسماعيل المحاملي، وهو يعد من العلماء والمحدثين والرواة المعروفين بالفقه الشافعي، وأنجبت منه ابناً، هو محمد بن أحمد، الذي أصبح فقيها وقاضياً ومحدثاً، وكان من الثقات أيضاً، أما أحفادها فكانوا فقهاء وقضاة على المذهب الشافعي، ألفوا كتبا بالشافعية، وكلهم من المحدثين الثقات، انتقلت إلى رحمة ربها في شهر رمضان [32].

المحور الثاني: التصوف في بغداد خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي

توطئة:

إن الدولة العربية الإسلامية إبان الخلافة العباسية بدأت عام (132- 656هـ = 750- 1258م)، واستمرت خمسة قرون حتى قضى عليها المغول في اليوم المشؤوم. أما جغرافيا فقد امتدت وامتد معها نفوذها وسيطرتها شرقاً إلى بلاد الهند وأجزاء من الصين، ومن الغرب إلى بلاد تركيا الحالية والبحر الأسود وروسيا وبلاد البلغار وأجزاء من أوربا.

وكانت بغداد حينها مزدهرة ازدهارا كبيراً في جوانب الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية. ونتيجة للفتوحات الإسلامية والتوسع السياسي والجغرافي إلى أكبر مساحة من أراضي العالم، ودخول شعوب غير عربية في الدين الإسلامي، فقد تنوعت الحضارة العربية والإسلامية، فاختلفت المظاهر الحضارية في العلوم، والمعارف، والفنون، والعمران، ثم انتقلت تلك المظاهر إلى بلادنا العربية، وكان التصوف جزءًا من هذه العلوم التي انتشرت في العالم الإسلامي، في حين كان الناس في غفلة عن العبادة والدين، وكانوا يعيشون حياة الترف واللهو والفساد، فظهرت طبقة من العلماء، يدينون بالزهد والتصوف، ويدعون إلى ضرورة الإقبال على الله سبحانه بالعبودية، والإخلاص بالقلب، والهمة، وكانت طريقتهم العمل بالكتاب والسنة [33].

فالتصوف حسب ابن خلدون: هو علم من العلوم الشرعية، وأصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور، من لذة، ومال، وجاه، والانعزال عن سائر الخلق في الخلوة للعبادة [34].

ويختتم ابن خلدون تعريفه بأن التصوف ظهر كعلم خلال القرن الثاني الهجري، وكانت على الخطى التي سار بها أهل السنة، من كبار الصحابة والتابعيين، الذين كانوا من قبلهم، وهو طريق الحق والهداية [35].

إذًا، نستنتج من نص ابن خلدون أن الحال التي كان عليها الناس خلال القرن الثاني الهجري من التوجه إلى الله والخلوة للعبادة كانت زهداً، وليست تصوفاً بالمعنى الحالي ، والرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كان أول الناس الزاهدين في حياته ، ومن بعده أصحابه رضي الله عنهم ، والتابعون، وتابعو التابعين، ثم من بعدهم الأولياء والصالحون.

وقد نشأ هذا العلم كرد فعل تجاه ظاهرة البذخ والإسراف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، والفساد الإداري والسياسي والفكري والنفسي وانحسار الدور الديني عن الحياة العامة، ذلك الفساد الذي أصاب الدولة والمجتمع الإسلامي في عصر الخلافة العباسية [36].

وأما الزهد فهو مرتبة روحانية من العبادة، وتسليم الروح والجوارح للخالق سبحانه، وتستند على ثلاث أعمدة من الإيمان ألا وهو: العمل، والعلم، والحال. كما بينه الإمام الغزالي رحمه الله: بقوله: ((هو مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل، كسائر المقامات؛

لأن أبواب الإيمان – كلها كما قال السلف– ترجع إلى عقد وقول وعمل، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره، فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته)) [37].

أما الاحوال الفكرية التي سبقت القرن السابع الهجري في بغداد، فلم تكن على ما يرام والمتمثل بـ (ركود غير تام)، إذ إن الصراعات والتناحرات بين كل من الفرق الإسلامية والاتجاهات الفكرية المتأزمة، من أصحاب العلوم العقلية والفلسفية والكلامية والسلفية المتعصبة والمذاهب الإسلامية... فضلا عن الموقف السياسي المتمثل بالخلافة العباسية، واتخاده الإجراء اللازم والخطير تجاه فرقة أو فكر ديني معاكس له وللدولة [38].

أما الميزة الثانية التي تمثل هذه المدة فهي انتشار التصوف والزهد انتشارا كبيرا بين ربوع الخلافة وبغداد، وكان وراء هذا الستار اتجاه يميل إلى تحكيم العقل في معالجة المنازعات والمشاكل كافة الدينية والدنيوية، أما أسباب انتشارها فتمثلت بعدة عوامل [39]، منها:-

أولاً: العامل السياسي: إن الدولة اتخذت من التصوف ملجأ لإشغال العامة عن القضايا السياسية والاقتصادية المتدهورة.

ثانيا: العامل الاجتماعي: المتمثل بنزعة الزهد عن الدينا، وتغلب العاطفة على العقل، وانتشار الخرافات والأساطير، وزيادة عدد الربط والزوايا في بغداد [40].

ثالثاً: اضطراب الأوضاع السياسية، والمنازعات بين الفرق الاسلامية داخل النطاق المذهبي، مما أدى إلى ظهور التعصب والتشدد، فضلا عن ذلك، فقد توجه أفراد الطبقة الوسطى من الناس، خاصة العمال والصناع إلى التصوف، مما وجد ترحيباً كبيراً من قبل الحكام والمحكومين [41].

أما القرن السابع الهجري فيمكن أن تنقسم إلى عهدين:

1. العهد الأول يمثل ما قبل الغزو المغولي، وهو عهد حكم أربعة من خلفاء الدولة العباسية، وهم الخليفة الناصر لدين الله (575هـ -622 هـ)، والظاهر بأمر الله (622هـ -623هـ)، والخليفة المستنصر بالله (623-640هـ)، والخليفة المستعصم بالله (640- 656هـ). ومن خلال استقرائي للمصادر التاريخية المختصة بهذا الدراسات تبين أن الاتجاه الصوفي حظي بالمكانة العالية، والتقدير الكبير في العهود التاريخية الأربعة، ونجد أن شيوخها وزهادها كانوا يتمتعون بمقام جليل، لاسيما في عهد الخليفة الناصر لدين الله، الذي أنشأ لهم الربط والزوايا، وأجرى لهم الأموال والعطايا، وقرب منهم إلى مجلسه؛ لذلك وصفِ عصره بالاستجابة للاتجاهات الدينية القوية السائدة، والحنكة السياسية لمراعاة الظروف المنسجمة مع عصره، وخير دليل على ذلك إنشاء الفتوة من الشباب، وتهيئة أفكارها وقدراتها اللامحدود، في صنع جيل جديد صالح للمجتمع [42] . وكان من أولى اهتمامات الناصر من الناحية الاجتماعية هي الفتوة [43] التي جاءت نتيجة تقربه من المتصوفة والمشايخ في بغداد، ومنحهم درجة عالية من المناصب

في السياسة، والقضاء، والتعليم [44]. واستمر على هذا الحال حتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري، والذي يتمثل بالغزو المغولي [45].

المحور الثالث: التصوف عند ابن الجوزي من خلال كتابه " صفة الصفوة ":

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن محمد بن جعفر الجوزي، القرشي، التيمي، البكري، ولد وتوفي في بغداد (510– 597هـ = 1117– 1200 م)، ويعد من الفقهاء الكبار في المذهب الحنبلي، المفسّر، الحافظ، الواعظ، المؤرخ، الأديب [46]. كرس حياته في التأليف، والتدوين، والفقه.. ولم يرحل في طلب الحديث، لكنه اكتفى بتأليف والتصنيف، وهذه المصنفات والمؤلفات بلغ عددها حوالي (300) ثلاثمائة مصنف ومجلد [47].

كتابه " صفة الصفوة "

يعد هذا الكتاب في مقدمة كتبه ومؤلفاته، وهو الكتاب الذي كان محل جدل في التصوف بينه وبين مؤلف كتاب " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " الحافظ أبو نعيم: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (336– 430هـ = 948– 1038م)، وهو أحد المشايخ الكبار لدى المتصوفة، أصله من أصبهان، وهو سبط الشيخ الزاهد محمد بن يوسف البَنَّا أحد مشايخ الصوفية [48]. جاء تأليف ابن الجوزي لكتاب " صفة الصفوة " بناءاً على رغبة أحد تلاميذه الذي سأله عن رأيه في كتاب " حلية الأولياء". وإن الهدف من تأليف كتابه " صفة الصفوة "هو: توضيح أو تصحيح السرد التاريخي لمسلك التصوف ، ومعالجة الأخطاء عند أبي نعيم حسب وجهة نظره في: "حلية الأولياء "، وعدم تكرارها في " صفة الصفوة " [49].

((وقد حداني جِدّك أيها المريد، في طلب أخبار الصالحين وأحوالهم، أن أجمع لك كتاباً يغنيك عنه، ويحصّل لك المقصود منه، ويزيد عليه بذكر جماعة لم يذكرهم، وأخبار لم ينقلها، وجماعة وُلدوا بعد وفاته، وينقص عنه بترك جماعة قد ذكرهم، لم ينقل عنهم كبير شيء وحكاياتٍ قد ذكرها، فبعضها لا ينبغي التشاغل به، وبعضها لا يليق بالكتاب على ما سبق بيانه)) [50].

ومما يلاحظ أن الكتاب احتوى على أسماء كبار من المتصوفة شمل الرجال والنساء المعروفين والغير المعروفين في بغداد في قرون مختلفة ذاكراً أحوالهم وصفاتهم وعباداتهم [51] أما كتاب أبي نعيم الأصبهاني " حلية الأولياء" الذي يعُد الكتاب الأول في المنهج الصوفي فذكر كوكبة ضخمة من أسماء لامعة من الزاهدين من قرن الصحابة والتابعين ومن تبعهم الى فترات متلاحقة من القرن الرابع والخامس والسادس الهجري واصفاً احوالهم وصفاتهم وسيرهم وتسلسلهم الزمني ، وهو أقدم من أبن الجوزي من هذه الناحية .

أما من ناحية الظروف والدواعي التي أدى به الى تأليف كتابه ، فيختلف ألاسباب من مؤرخ الى أخر فقد يكون سبباً دينياً أو سياسيا او اجتماعيا او اقتصاديا.

فكلاهما يعدان من كبار الأئمة الأعلام في الأمة في مجال التصنيف والكتابة ولا يمكن الطعن بأي أحد منهم ، ولا ننسى أن ابن الجوزي يعُد من فقهاء الحنابلة حيث عاش في زمن الانقسامات الداخلية والفتن والاتجاهات الفكرية وقد تعرض إلى الاضطهاد والتنكيل بسبب مؤلفاته وموقفه الفكري في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي أدى به الى السجن ، وبقي فيه خمس سنوات: من(590 – 595 هـ). وكان الخليفة معروفا عنه بحبه للصوفية، والذي قام بتأسيس مؤسسة رسمية لهم في الدولة وهي " الفتوة" ومارس معهم سياسة طيبة ونال ثقتهم، وقربهم من الدولة [52].

أما موقفه من المتصوفة فإنه لا يتعارض معهم ويرى بانها مسلك بريء تقوم على الكتاب والسنة ، وهناك مَنْ يعتقد أن سبب تأليفه لكتاب " صفة الصفوة " هو ميله للتصوف والمتصوفة، [53].

الخاتمة:

كانت تلك جولة سانحة في كتاب رائع بديع لخطيب بغداد في عهده، أجل فابن الجوزي خطيب بغداد بلا منازع، وعالمها الكبير الذي أمضى عمره في العلم والتعليم والتدريس والتصنيف والتأليف، بحيث أن ما بقي من براية أقلامه التي كان يكتب بها، صارت كمية كبيرة من الحطب، الذي جمع، فأوقد بها النار، ووضع عليها الماء ليغلي، فصار ماء لغسل الميت الذي هو ابن الجوزي، صاحب التصانيف التي منها "صفة الصفوة "...

تبين مما سبق ان الكتاب " صفة الصفوة " ضم أسماء متصوفة ومتصوفات من مختلف المدد الزمنية في بغداد بدءا من بداية العصر العباسي الأول حتى نهاية حكمهم، ولم تكن محصوراً بالقرن السابع الهجري فحسب، وهكذا جاء كتابهُ أكثر تهذيباً وفائدة.

ومن المعروف أن تلك المتصوفات كُنَّ متزوجات من كبار رجال التصوف المعروفين في بغداد وكانت تلك النساء من الصوفية، عابدات، صالحات زاهدات، وكن من أسر عريقة، ذات نسبٍ شريف مرموق.

وفي المدة التي صنف فيها ابن الجوزي كتابه: " صفة الصفوة "، كانت بغداد تعج بالصراعات الفكرية، وتعصف بها التيارات الفلسفية، فتولد هناك حينئذ منهج صوفي قويم رصين استمر بدون انقطاع ولا فتور منذ نهاية الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن السابع حتى القرن الثامن الهجريين.

إن ابن الجوزي رحمه الله يرى أن التصوف يجب أن يكون معتدلاً سنيا خاضعا لأحكام الشرع الحنيف، خاليا من البدع، عاريا من الخرافات، بريئا من الأساطير منزها عنها جميعا، بحيث لا تبدو فيها شائبة ولا كدرة، بل لا يجوز أن يخالف الكتاب الكريم والسنة الشريفة، ولا يمكن أن يصطدم بقاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، التي تسمى بالقواعد الكلية للإسلام، فإن خالفها نزع عنه اسم التصوف ليكون شعوذة واستدراجا، لا خير فيه.

قائمة المصادر والمراجع

1. أبو حامد بن محمد الغزالي الطوسي، (ت 505هـ) إحياء علوم الدين ، (بيروت ، دار المعرفة ، د. س).
2. أبو عبد الرحمن السلمي محمد بن الحسين بن محمد (ت 412هـ) طبقات الصوفية ، (بيروت ، دار الكتب العلمية : 1998م).
3. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، (ت597هـ)
   - صفة الصفوة، (القاهرة، دار الحديث: 2000م)،
   - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك(بيروت، دار الكتب العلمية : 1992م).
   - مناقب الإمام أحمد ،ط2 (مصر، دار هجر : 1988م).
4. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ،(ت774هـ)
   - البداية والنهاية ، (بيروت ، دار إحياء التراث العربي:1988م).
   - طبقات الشافعيين،(مكتبة الثقافة الدينية : 1993م).
5. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت 430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (بيروت، دار الكتاب العربي: 1974م).
6. أحمد بن علي أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت 463هـ) تاريخ بغداد ، (بيروت ، دار الغرب الإسلامي : 2002م).
7. أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان الإربلي ،(ت 681هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (بيروت ، دار صادر : 1900م) ،ج1 .

8. تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، (ت 771هـ) طبقات الشافعية الكبرى،ط2 (هجر للطباعة والنشر والتوزيع :1992م).
9. تاج الدين علي بن انجب الخازن ،(ت 674هـ) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، (بغداد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية :1934م).
10. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ،(ت808هـ) مقدمة ابن خلدون ، ط2(بيروت ، دار الكتب العلمية :1993م).
11. علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، (ت571 هـ) تاريخ دمشق،(دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع :1995م).
12. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ،(ت626هـ) ، معجم البلدان ، (بيروت ، دار الفكر،د:ن).
13. شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (سبط ابن الجوزي)، (ت 654هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، (الهند، مطبعة حيدر الدكن اباد : 1951م).
14. كمال الدين بن عبد الرزاق المعروف (بأبن القوطي) ،(ت 723هـ) مجمع الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (بغداد ، مطبعة الفرات: 1351م).
15. محمد بن ابي المكارم المعروف بابن المعمار البغدادي ،(ت 642هـ) كتاب الفتوة ،(بغداد ، مطبعة الشفيق :1958م)
16. محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، (ت 748هـ)
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، ط1(دار الغرب الإسلامي : 2003م).
17. سير أعلام النبلاء، ط3، (مؤسسة الرسالة :1985م).
18. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط2 (بيروت ، دار التراث : 1968م).
19. محمد بن مكرم بن على، المعروف بابن منظور، (ت711هـ) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر،(دمشق, دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر :1984م).

قائمة المراجع

20. آمنة محمد نصير ، أبو الفرج الجوزي (510-597هـ) آراؤه الكلامية والأخلاقية ط1 (جامعة الأزهر ، دار الشروق : 1987م)
21. جعفر حسين خصباك العراقي في عهد المغول الأيلخانين (656-736/ 1258-1335م)،(بغداد .مطبعة الماني.1969م)

22. عبد النعيم محمد حسنين ،سلاجقة إيران والعراق، (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1959م)

23. محمد مفيد أل ياسين ، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط1(بغداد، الدار العربية لطباعة : 1979م)

البحوث والمقالات:

24. خالد بن سليمان الخطيب، تأريخ التصوف بين أبي نعيم (ت430هـ) وأبن الجوزي (ت597هـ) (إشكالية السرد التاريخي) ، بحث مقدم الى (الرياض ، كلية الملك عبد العزيز الحربية د:ن) مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .

25. ندى موسى عباس ، التصوف وأسباب ظهوره في العراق ، بحث مقدم من قبل (كلية التربية ، جامعة ديالى: 2009) ،العدد الخامس وثلاثون

---

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق : أحمد بن علي، (القاهرة ، دار الحديث)، ط ، 2000م ، مج1 ، ص 575

(2) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت، دار الكتاب العربي)، 1974م، ج10، ص323

(3) براثا: محلة كانت في طرف بغداد في قبلة الكرخ وجنوبي باب محول: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت ، دار الفكر) ج 1 ص362

(4) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، البداية والنهاية ، تحقيق : علي شيري، ط1 (بيروت ، دار إحياء التراث العربي: 1988 م) ، ج10 ص 215

(5) وهو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان (150هـ -767م / ت 227هـ - 841 م)، مروزي، كان معروفا بالحافي، ولد بمرو، وسكن ببغداد، عُرف عنه الزهد والتصوف والعبادة. ينظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية: 1992م)، ج11 ص122

(6) ابن الجوزي، صفة الصفوة، مج 1، ص608

(7) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم، أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية: 1998م) ، ج1 ص412

(8) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: إحسان عباس ، ط1 (بيروت ، دار صادر : 1900م) ، ج1 ص276

(9) صفة الصفوة، مج1، ص576

(10) المصدر نفسه، مج1، ص576

(11) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، (بيروت ، دار الغرب الإسلامي : 2002م)، ج 16، ص623

(12) وهو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي (164- 241هـ/ 780- 855م) إمام المذهب الحنبلي، وهو أحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، كان والده حاكم سرخس، ولد ونشأ ببغداد، ترعرع في طلب العلم وحفظ القران وجال من أجله، ألف كتابه (المسند)، في ستة مجلدات وتحتوي على ثلاثين ألف حديث. ينظر : ابن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط2 ، (دار هجر : 1988م) ، ص16- 20.

(13) السلمي، طبقات الصوفية، ص412

(14) صفة الصفوة، مج 1 ص 577

(15) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج16، ص623 .

(16) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج7 ، ص545

(17) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط2 (بيروت ، دار التراث : 1968م) ج8 ، ص527

(18) ابن الجوزي، المنتظم ، ج 10 ، ص102

(19) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، ط1، تحقيق : بشار عوّاد معروف (دار الغرب الإسلامي : 2003م) ، ج5 ، ص607

(20) ابن الجوزي، صفة الصفوة، مج 1، ص 610؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 11، ص228

(21) وهو من العابدين الصوفية الكبار في بغداد كما كان من أصحاب ابن الجنيد البغدادي (215- 298) هـ. وللمزيد ينظر: السلمي: طبقات الصوفية: ص220 -221

(22) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج14، ص438

(23) السلمي: طبقات الصوفية: ص417

(24) سورة التوبة، الآية 118، الجزء، ص206

(25) المصدر السابق: ص417

(26) ابن الجوزي، صفة الصفوة، مج 1، ص610

(27) المصدر السابق: ص 390

(28) محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، (دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر :1984م)، ج7 ص318

(29) أبن كثير، البداية والنهاية، ج6 ص196

(30) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (مؤسسة الرسالة :1985م) ج15، ص264

(31) أبو الفداء، طبقات الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم، (مكتبة الثقافة الدينية: 1993م)، ج 1 ص313

(32) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 16 ص632

(33) ندى موسى عباس، التصوف وأسباب ظهوره في العراق، بحث مقدم من قبل (كلية التربية ، جامعة ديالى: 2009) ، العدد الخامس والثلاثون ، ص266

([34]) عبد الرحمن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ط2، (بيروت، دار الكتب العلمية: 1993)، ص 329.

(35) المصدر نفسه.

(36) عباس، التصوف وأسباب ظهوره في العراق، ص263.

(37) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، (بيروت، دار المعرفة، د. س) ج4، ص216

(38) عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: 1959م)، ص181

(39) محمد مفيد آل ياسين، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، ط1 (بغداد، الدار العربية لطباعة: 1979م)، ص31- ص34

(40) جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الأيلخانيين (656-736 = 1258-1335م)، (بغداد، مطبعة الماني، 1969 م)، ص236

(41) عباس، التصوف وأسباب ظهوره في العراق، ص236

(42) تاج الدين علي بن أنجب الخازن، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، (بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية: 1934م)، ج 9 ص 119

(43) محمد بن أبي المكارم أبي عبد الله المعروف بابن المعمار البغدادي الحنبلي، كتاب الفتوة ، تحقيق ونشر: مصطفى جواد، (بغداد ، مطبعة الشفيق : 1958م) ص 158 .

(44) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: شمس الدين يوسف بن قزاوغلي التركي (سبط ابن الجوزي)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (الهند، مطبعة حيدر الدكن آباد: 1951م)، ج 8 ص729

(45) كمال الدين بن عبد الرزاق الشيباني المعروف (أبن القوطي)، مجمع الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، عناية: مصطفى جواد، (بغداد، مطبعة الفرات: 1351م)، ج 7 ص 768

(46) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ص140 .

(47) الذهبي ، سير أعلام ، ج21 ص375 .

(48) تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق :محمود محمد الطناحيو عبد الفتاح محمد الحلو ، ط2 : (هجر للطباعة والنشر والتوزيع :1413هـ)ج4 ص18.

(49) خالد بن سليمان الخطيب ، تأريخ التصوف بين أبي نعيم (ت430هـ) وابن الجوزي (ت597هـ) (إشكالية السرد التاريخي) ، ص217

(50) ابن الجوزي ، صفة الصفوة،ج1 ص12

(51) الخطيب، تاريخ التصوف، ص 917

(52) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8 ص440

(53) آمنة محمد نصير، أبو الفرج الجوزي (510- 597 هـ)، آراؤه الكلامية والأخلاقية، ط1، (جامعة الأزهر، دار الشروق: 1987م) ، ص 215- ص 218 .